أبريل/نيسان 2017

الداعمون الخارجيون وتهميش الجيش السوري الحر

فيلكس لوغران

حقق النظام السوري، خلال صيف 2016، انتصارين إستراتيجيين على قوى المعارضة وهما استعادة السيطرة على داريا، وهي ضاحية قرب دمشق، واستعادة السيطرة على أحياء حلب. وفي كلتا الجبهتين كان ثمة أمر ملحوظ وهو غياب الفصائل الرئيسية في الجيش السوري الحر. ففي الجزء الشمالي من البلاد، كانت الكتائب المدعومة تركياً مشغولة بالاحتفال بانتصاراتها على ما يعرف بـ "الدولة الإسلامية" (داعش) وعلى قوات سوريا الديمقراطية التي يسيطر عليها الأكراد. أما في جنوبي البلاد، فقد كانت الكتائب المدعومة أردنياً تقوم بإخلاص بمهمتها كحرس حدود، بعيداً عن ساح القتال ضدّ النظام. والحقيقة أنه منذ منتصف 2015، تمّ تهميش الفصائل غير الجهادية في عملية القتال ضدّ النظام، ليس بسبب أن الجيش السوري الحر لم يعد موجوداً، كما يُدَّعى في بعض الأحيان؛ وإنما لأن داعميهم قد طلبوا منهم تخفيف التصعيد ضدّ قوات الأسد، ليتمكنوا من التركيز على الأعداء الآخرين. وكان لهذا التهميش نتيجتان: الأولى أنه جعل الأسد وحلفاءه واثقين بما فيه الكفاية من كفاءتهم في دحر التمرد، ما جعلهم يشعرون أنهم ليسوا في حاجة حقيقية للانخراط في المفاوضات السياسية أو الالتزام بالهدن التي تمّ التفاوض عليها. أما النتيجة الثانية فهي أن تهميش الجيش الحر قد ترك الجماعات الجهادية والسلفية وحيدة في أرض المعركة في مقارعة النظام، معطياً إياها بذلك احتكاراً شبه كامل لخطاب الثورة.

يضم الجيش السوري الحر مجموعة فصائل وكتائب غالباً ما تكون منظمَّة محلياً من دون سلسلة هرمية مركزية. وقد تكون بعض هذه الكتائب منضوية في تحالف أكبر يشمل بضع آلاف من المقاتلين. ولكن بسبب نقص الهرمية المركزية، غالباً ما يقتصر تنسيق فصائل الجيش الحر فيما بينها على معارك محددة، بينما نادراً ما تفعل ذلك على صعيد القرارات السياسية والإستراتيجية. أما خلفيتهم السياسية فتتدرج ما بين الوطنية العلمانية وإسلاموية الإخوان المسلمين، مع وفرة من الذين لا ينتمون في الواقع لأي إيديولوجية. ومعظمهم إما منشقون عن المؤسسة العسكرية، أو مدنيون تحركهم الرغبة في إسقاط النظام.[1]

ويمكن تعريف فصائل الجيش السوري الحر باختصار بأنها تلك التي تعلن أنها جزء من ذلك الجيش، من دون الإشارة لأية هيكلية أو قيادة على مستوى البلاد أو الإقليم، وذلك في مقابل الفصائل الإسلامية التي لا تعلن أنها جزء من الجيش الحر، وتنزع في الغالب للارتباط بقيادات موحدة إما على مستوى البلاد أو المنطقة.[2] وإذا أخذنا الأمور بمجملها لأمكننا القول:

---

[1] يستخدم صناع السياسية والباحثون على حد سواء، وبينهم كاتب هذه السطور في مقالات سابقة، تعبير "معتدل" لوصف خلفية هذه الفصائل. ولكن يبدو أن هذا التعبير ليس محقاً تماماً، فالكثير من الموصوفين يرفضون وسمهم بأنهم ثوريون "معتدلون" أو معارضون معتدلون للأسد.

[2] حتى لو كانت بعض فصائل الجيش السوري الحر إسلامية التوجه كالفصائل التابعة للإخوان المسلمين؛ فإن الإعلام العربي والباحثين والفصائل أنفسها تصف نفسها بأنها فصائل من الجيش السوري الحر، في مقابل الفصائل الإسلامية، وغالباً ما تُذكَر الفئتان عندما تشتركان في معركة واحدة.

إن كتائب الجيش السوري الحر تشكل غالبية القوات الثورية. بيد أن عدم مقدرتهم على تحديد أجندة أو إستراتيجية مشتركة هي نقطة ضعفهم الأساسية. وقد جعلهم هذا معرضين بشكل خاص إلى ضغوطات لكي يخدموا مصالح خارجية بدل مصلحتهم هم، وبخاصة مصالح تركيا والأردن والولايات المتحدة التي لكل منها أولويات تسبق أوليات قتال الأسد أو مواجهة روسيا.

وقد أوجد الداعمون الرئيسيون للجيش السوري الحر قيادتين عسكريتين: الأولى في الأردن وهي مركز العمليات العسكرية Military Operations Centres (MOC) أو الموك. والثانية في تركيا وهي مركز العلميات المشتركة Müşterek Operasyon Merkezi (MOM) أو الموم. ولكن دعمهما محدود وغير دوري وغالباً ما يأتي مصحوباً بضوابط كبيرة لاستخدامه. وبدلاً من ذلك، أنشأت كل دولة على حدة قنواتها الخاصة لتقديم الدعم لبعض الفصائل بدون التنسيق مع الدول الأخرى. وما فتئت الدول الداعمة الأجنبية تدفع من أجل تخفيف حدة القتال ضدّ نظام الأسد لحثّ المقاتلين على الاشتراك في معارك مع أعداء ثانويين. وقد أسهم ذلك إلى حدّ كبير في خسارة الشرعية المحلية، ما صبّ في خدمة النظام والجهاديين.

أولاً- تخفيف حدة المواجهات العسكرية: توقفوا عن قتال الأسد لكي تتمكنوا من قتال الجهاديين بشكل أفضل!

فشل الجهود في تحويل الفصائل الثورية المستقلة إلى صحوات

في عام 2014، بدأت الولايات المتحدة برنامجاً بقيمة 500 مليون دولاراً أمريكياً لتدريب المعارضة وتجهيزها للقتال ضدّ داعش وفي النهاية ضدّ النصرة. وبعد مرور سنة على بدء البرنامج كان بضعة آلاف من المقاتلين قد تقدموا بطلبات انضمام، ولكن عدد الذين أتموا التدريب لم يتجاوز المئة مقاتل. فقد انسحب غالبية المقاتلين عندما طُلب منهم توقيع تعهد بعدم مقاتلة قوات الأسد.[3]

وفي شهري تموز/يوليو وأيلول/سبتمبر، دخلت وحدتان من الفرقة 30 التي تمّ تشكيلها مؤخراً من بضع عشرات من الذين أتموا تدريبهم وتسليحهم وفق البرنامج، ولكن ما إن دخلوا البلاد حتى وقعوا في أسر جبهة النصرة.[4] ولم يكن السبب في أسرهم وانعدام التضامن معهم كونهم دُعِموا من الولايات المتحدة؛ وإنما لأنهم تعهدوا بعدم مقاتلة الأسد. وفي الحقيقة إن معظم فصائل الجيش السوري الحر المدعومة من قبل الموم (MOM) تلقت دعماً عسكرياً من وكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA) وحلفائها، ولكن ما دامت هذه الفصائل تقاتل كلاً من النظام والتنظيم فإنها لا تُعتبر معادية للثورة، كما كان حال الفرقة 30.

لقد كانت فصائل الجيش السوري الحر متشوقة لقتال داعش، بيد أنه من السذاجة أن تتصور الولايات المتحدة أن بإمكانها أن تُوجِد بدائل خاضعة، وتطلب من المقاتلين الكفّ عن مقاتلة عدوهم الرئيسي. من دون أن يسبب ذلك هروباً أو صدامات مع الفصائل الأخرى. ولعلّ حركة حزم خير مثال على تحويل الولايات المتحدة القوى الثورية إلى مجرد كيانات بديلة تابعة.

---

[3] إبراهيم حميدي، "مقاتلو المعارضة السورية ينسحبون من برنامج التدريب والتجهيز"، موقع السيريان أبزرفر 22 بالإنكليزية حزيران/يونيو 2015. www.syrianobserver.com/EN/News/29382/Syrian_Opposition_Fighters_Withdraw_from_US_Train_Equip_Program

[4] بي بي سي العربية: "الولايات المتحدة تفشل في حماية مجموعة من 30 مقاتلاً في سوريا". 5 آب/أغسطس 2015. متوفر على الرابط: www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/rebels-worth-supporting-syrias-harakat-hazm

تشكّلت حركة حزم في أوائل 2014 من قبل عدد من الفصائل الثورية، شارك العديد منها في معركة طرد داعش من منطقة شمالي-غربي سوريا في شتاء 2013-2014، في الوقت الذي طوروا فيه قتالهم ضد النظام. كما أن علاقة حركة حزم بجبهة النصرة كانت دوماً سيئة، رغم أن الأخيرة يفترض أن تكون، على عكس داعش، حليفة للجيش الحر، ولطالما اصطدمت الجماعتان إحداهما مع الأخرى. وعلى الرغم من أن حركة حزم كانت تعتبر من الفصائل المفضلة لدى الولايات المتحدة؛ [5] فإنها تُركت وحيدة من دون أي دعم عندما قامت جبهة النصرة بتدميرها في نهاية 2014. وعندما سأل كاتب هذه السطور أحد القادة السابقين في حركة حزم لماذا تخلّفت الولايات المتحدة عن دعمهم عندما هاجمتهم جبهة النصرة، أفاد أن "الولايات المتحدة قد بدأت بحلول أيلول/سبتمبر 2014 بالضغط علينا لنتوقف عن قتال الأسد وأن نركز فقط على قتال داعش. وبينما لم يكن لدينا مشكلة في قتال داعش؛ فإننا لم نوافق على التوقف عن القتال ضد الأسد. ومنذ ذاك الوقت تدهورت علاقاتنا مع الولايات المتحدة، وفي النهاية توقّفوا عن دعمنا. وعندما هاجمتنا جبهة النصرة كنا قد فقدنا كل دعم خارجي. خسرنا لأننا تجرأنا على عصيان الأوامر الأمريكية".

فشل الهدن

بعد أن أثبتت إستراتيجية اختيار مجموعات مقاتلة لسحبها من أرض المعركة لكي يتمكنوا من محاربة الجهاديين فشلها؛ كانت الإستراتيجية البديلة فرض اتفاقيات هدنة مع النظام على امتداد البلاد. وفي مناسبتين اثنتين، تم التوصل إلى اتفاق روسي-أمريكي يفرض هدنة على القوى المتحاربة. ولئن نجحت الهدنة التي عقدت في شباط/فبراير-آذار/مارس 2016 في تخفيف حدة القتال لمدة تزيد عن شهر؛ فإن هدنة أيلول/سبتمبر 2016 لم تدخل حيز التنفيذ عملياً أبداً.[6]

ويبدو أن كلاً من نظام الأسد وروسيا لم يكن لديهما النية في احترام التزاماتهما، ورأوا في الهدنة مجرد طريقة لكسب الوقت ولاختبار عزم الثوار وأصدقائهم المفترضين. فبالنسبة للنظام لم تكن الهدن مطلقاً الخطوة الأولى باتجاه المفاوضات، بل كانت خطوة نحو استسلام الثوار الكامل، كما كان حال الهدن في دمشق وحمص.[7]

أما بالنسبة للداعمين الخارجيين، وبخاصة الولايات المتحدة، فإن الهدن كان لها ثلاث غايات:
الغاية الأولى هي السماح للجيش السوري الحر بإعادة التموضع على الجبهات ضد داعش، إذ فشلت الولايات المتحدة في إقناع الفصائل المنفردة بقتال داعش فقط في وقت كان فيه القتال ضد النظام مستعراً، فأملت في أن تتمكن من ذلك في حال أوقف النظام هجماته.

والغاية الثانية هي إنهاء الاعتماد المتبادل بين الجيش السوري الحر وجبهة النصرة (فتح الشام)،[8] فعلى الرغم من الاختلافات الإيديولوجية فإن كليهما يعتمد عسكرياً على الآخر في ساحة المعركة ضد النظام. بالتالي جاءت فكرة وقف المواجهات مع الأسد علها تمكّن الجيش السوري الحر من قطع علاقاته مع حلفائه الجهاديين وتؤدي بالتالي إلى تهميش المجموعات التي تعارض حلاً سياسياً في سوريا.

---

[5] جيفري وايت، "الثوار الذين يستحقون الدعم: حركة حزم السورية". الواشنطن بوست، 28 نيسان/إبريل 2014. متوفر على الرابط:
www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/rebels-worth-supporting-syrias-harakat-hazm

[6] شوارتز، فيليشيا: "مجلس الشيوخ يهاجم خطة الإدارة الفاشلة في سوريا". الوول ستريت جورنال. متوفر على الرابط:
http://www.wsj.com/articles/administrations-failed-syria-truce-assailed-by-senators-1475170893

[7] جينيفر كافاريلا وكاتي مينوتش وجنيفييف كاراغراند وفريق سوريا في معهد دراسات الحرب: "ضغوط الأمم المتحدة لوقف النار في سوريا تحقق نتائج ولكنها تصب في مصلحة النظام". معهد دراسات الحرب 31 كانون الأول/ديسمبر 2015. متوفر على الرابط:
iswresearch.blogspot.fr/2015/12/un-push-for-ceasefires-in-syria.html

[8] في تموز/يوليو 2016، غيرت جبهة النصرة اسمها إلى جبهة فتح الشام، معلنة قطع علاقاتها مع القاعدة.

وأما **الغاية الثالثة** فهي أن تكون الهدنة الخطوة الأولى نحو تسوية سياسية على المدى الطويل.

وبينما اتفقت معظم قوى المعارضة تقريباً على مبدأ الحل السياسي وتخفيف التصعيد تجاه النظام؛ تفرّدت جبهة النصرة (فتح الشام) بحفاظها على الخطاب الثوري وقدمت نفسها على أنها الجهة الوحيدة التي تناضل بقوة من أجل إسقاط الأسد. أما أولئك الذين قبلوا بالتسوية مع الأسد فقد دُعُوا انهزاميين إن لم يكن خونة. وجاء فشل الهدن لكي يثبت أن الجهاديين كانوا محقين. فالنظام لا ينوي احترام الهدن، وأما الدبلوماسية فلم تنقذ (ولم يكن لها أن تنقذ) حلب. فقط الفعل العسكري الذي قادته جبهة النصرة في شهر آب/أغسطس أفلح جزئياً في كسر الحصار.[9]

وبدت جبهة النصرة (فتح الشام) خلال اعتداءات النظام الكبرى على مدينة حلب وكأنها القوة الوحيدة القادرة على مواجهة قوات الأسد. أما في صفوف الجيش السوري الحر فكانت المعنويات في الحضيض. وفي أثناء ما سمي هدنة الربيع في العام الماضي، تمكنت جبهة النصرة من تجنيد مئات المقاتلين، بشكل رئيسي من مقاتلي الجيش السوري الحر الذين كانوا يؤمنون بأن عليهم الموت بشرف، والذين لم يكونوا مقتنعين بالخط الإيديولوجي للجبهة بقدر اقتناعهم برغبتها في القتال.[10]

ويمكن القول في النهاية إن إستراتيجية تخفيف القتال ضد الأسد وروسيا الفاشلة قد جعلتهما واثقين من قدرتهما على التخلي عن أي التزام دبلوماسي بدون أن يخشيا العواقب. وأعطى ذلك في المقابل زخماً للجهاديين الذين كانوا يعارضون هذه الإستراتيجية منذ البداية.[11] وبينما كان من المفترض أن يؤدي تخفيف القتال ضدّ الأسد إلى تهميش الجهاديين؛ فإن ما فعله هو وضعهم في قلب اللعبة، لأن المحاصَرين في مدينة حلب كانوا يعرفون أن باستطاعتهم الاعتماد عليهم لكسر الحصار أكثر من اعتمادهم على المجموعة الدولية أو على الجيش السوري الحر المقيَّد.

ثانياً- الجيش السوري الحر يبتعد عن المركز ويتحول إلى حرس حدود

ثمة عامل آخر يشكل تحدياً للشرعية المحلية للجيش السوري الحر ويسبب تهميشه في الصراع وهو أن الدولتين المجاورتين الأردن وتركيا تستخدمان آلاف المقاتلين من الجيش السوري الحر لحراسة حدودهما. إن عملية درع الفرات في الشمال السوري ومهام حرس الحدود التي يتكلف بها الجيش الحر في الجنوب من قبل مركز العلميات العسكرية المعروف اختصاراً الموك (MOC) قد سهّلت بشكل مباشر تحقيق قوات النظام السوري لمكاسب مهمة وأعطت الفرصة للفصائل الإسلامية لتقدم نفسها على أنها الوحيدة التي بقيت في ساحة القتال.

---

[9] السورية نت، "جيش فتح حلب يفك الحصار عن مناطق سيطرة المعارضة في أهم تقدم منذ بدء المعارك". متوفر على الرابط:
https://www.alsouria.net/content/جيش-فتح-حلب-يفك-الحصار-عن-مناطق-سيطرة-المعارضة-في-أهم-تقدم-منذ-بدء-المعارك

[10] قام كاتب هذه السطور بنشر عدة تحقيقات حول انضمام أعضاء في الجيش السوري الحر إلى جبهة النصرة للمشاركة في القتال ضدّ النظام. ويقدّر تشارلز ليستر عدد المقاتلين الذين انضموا إلى جبهة النصرة بنحو 3000 مقاتل بين شهري شباط/فبراير وحزيران/يونيو 2016 في إدلب وحلب وحدهما. راجع "وصف جبهة النصرة"، مركز دراسات الشرق الأوسط في معهد بروكينغز، الدراسة التحليلية رقم 24، تموز/يوليو 2016. متوفر على الرابط:
www.brookings.edu/wp-content/uploads/2016/07/iwr_20160728_profiling_nusra.pdf

11 فيلكس لوغراند: "إستراتيجية جبهة النصرة (فتح الشام) تجاه الهدن في سوريا". شبكة الباحثين في الشؤون الدولية. متوفر على الرابط:

http://www.noria-research.com/strategy-regarding-truces-in-syria/

تهميش فصائل الجبهة الجنوبية التابعة للجيش السوري

استطاع الثوار في جنوبي سوريا أن يحافظوا نوعاً ما على الهوية الوطنية وأن يحدوا من تأثير الفصائل السلفية والجهادية. وتتمتع فصائل الجيش السوري الحر في الجنوب بعلاقات قوية مع المجتمعات المحلية ويقودها في الغالب ضباط منشقون من المؤسسة العسكرية السورية. وتضم غرفة "الجبهة الجنوبية" ما يزيد على الخمسين فصيلاً تحتوي ما بين 15 إلى 30 ألف مقاتل. وقد كان بإمكانها أن تقدم نموذجاً بديلاً لتحالف جيش الفتح الذي يهيمن عليه الجهاديون، والذي له اليد الطولى في الشمال. بيد أن الجبهة الجنوبية لم تحقق شيئاً يذكر خلال العام الفائت، وهي التي اعتُبِرت فرصةً لبناء جيش منظم مستقل عن تأثير الجهاديين وبإمكانه أن يكسر الحصار عن ضواحي دمشق الجنوبية، الأمر الذي يشكل تحدياً جدياً للأسد في العاصمة ويجبره على تقديم تنازلات ودخول في مفاوضات حقيقية.

ولكن، بدلاً من ذلك، كانت سياسة الموك هي تخفيف حدة القتال ضد النظام وإعطاء مهمة أخرى للفصائل لتي تدعمها وهي مهمة حماية الحدود الأردنية مع سوريا. إلى ذلك فقد تم إضعاف فصائل الجبهة الجنوبية إلى حد كبير بعدم استمرار الدعم وتواتره من قبل الموك. وبالتالي لم يكن لهذه الفصائل استقلال لاتخاذ القرار ولا الوسيلة لتناقش الإستراتيجية التي تم اتخاذها في الموك وفرضها عليهم. ويفرض الموك نفوذه على الفصائل باتباع سياسة العصا والجزرة. فعندما يُتّخذ قرار فتح الجبهة، يتم تقديم الذخائر والأسلحة والرواتب، وتُفتح الحدود للوصول إلى المستشفيات الأردنية. وعندما يقرر الموك أن على القتال إن يتوقف، يُقطع كل دعم عسكري وتُغلق الحدود أمام الوصول إلى المستشفيات في الأردن. وينسق الأردن بشكل علني مع روسيا في الشأن السوري، وثمة تخوّف حقيقي بين فصائل الجبهة الجنوبية والمدنيين على حد سواء من أن رفض التعاون مع السلطات الأردنية يمكن أن يدفع بالروس إلى التدخل وقصف الجنوب بالطريقة نفسها التي يقصفون بها الشمال.[12]

سقوط داريا

مثلت داريا، وهي مدينة في ضواحي دمشق، نموذجاً للحركة الثورية. فعلى الرغم من سنوات الحصار والقصف المركز، حافظت المدينة على نشاطات مدنية واجتماعية قوية، وشكّلت حالة نادرة حيث كان المجلس المحلي فيها يسيطر على الفصائل المسلحة وليس العكس. ولا يزال هذا التعاون السياسي-العسكري مع وجود فصائل عسكرية محلية يخدم كمثال للقوى الثورية التي تتوق إلى الاستقلال عن هيمنة الفصائل الإسلامية والأجندات الخارجية. هذا النموذج الناجح، بالإضافة إلى موقع المدينة على مقربة بضعة كيلومترات من العاصمة دمشق، هو ما جعل النظام أكثر حرصاً على قمع هذه الظاهرة. وخلال الهدنة القصيرة التي استمرت شهراً ونصف من أواخر شباط/فبراير إلى نيسان/إبريل، قرر النظام وبشكل فردي إخراج داريا من اتفاق الهدنة.[13]

واستمرت معركة داريا لغاية نهاية آب/أغسطس، عندما أجبر الحرس الجمهوري التابع للنظام آخر عسكريي المدينة ومدنييها على الرحيل. وفي الوقت نفسه لم يُسمح لعشرات ألوف المقاتلين في الجبهة الجنوبية من قبل داعميهم بمهاجمة النظام، رغم أنهم لا يبعدون سوى ثلاثين كيلومتراً عن داريا. وحتى بعد مرور أشهر على نهاية الهدنة لا يزال الوضع على حاله، ولا تزال الفصائل التي يدعمها الموك (MOC) محرومة من قتال الأسد وعليها التركيز فقط على حماية الحدود الأردنية وقتال المجموعات الصغيرة المرتبطة مع داعش.

---

[12] راجع سكاي نيوز عربية: "التنسيق الأردني–الروسي في سوريا 23 تشرين الأول/أكتوبر 2013. متوفر على الرابط:
www.skynewsarabia.com/web/article/785128/

[13] توم كوهلان: "نظام الأسد يتعهد باستمرار قصف داريا رغم الهدنة". جريدة التايمز 25 شباط/فبراير 2016، متوفر على الرابط:
http://www.thetimes.co.uk/tto/news/world/middleeast/article4699346.ece

أولويات تركيا تأتي قبل أولويات الثوار

ولا يختلف الوضع في الشمال عن الجنوب، فواجب الثوار الأول هو تأمين الحدود التركية ومقاتلة أعداء تركيا وليس نظام الأسد. ولئن كانت تركيا ولا تزال تأخذ موقف الصقور تجاه النظام السوري في المجموعة الدولية؛ فإن أولوياتها الخاصة بدأت تطغى على موقفها من المعارضة السورية. وبينما كانت قوات الأسد تعزز مواقعها في حلب وهي تحاصر قرابة 300 ألف شخص، كانت تركيا تدفع مقاتلي الجيش السوري الحر إلى القتال في جرابلس في مواجهة داعش ومواجهة قوات سوريا الديمقراطية التي يهيمن عليها الأكراد. وكان الهدف النهائي لهذه العملية قطع الطريق أمام تقدم قوات سوريا الديمقراطية على امتداد الحدود ومنع الأكراد من توحيد المناطق التي يهيمنون عليها.

ومن جديد، تم استخدام القوة البشرية والنارية معاً لتأمين الحدود بين سوريا وتركيا، خدمة للمصلحة الخاصة بطرف أجنبي. وكانت نتيجة ذلك مزيداً من التهميش لكتائب الجيش السوري الحر التي كانت تركّز كل طاقاتها تقريباً في معركة ثانوية في الوقت الذي كانت فيه حلب على وشك السقوط بيد قوات النظام من جديد. والخلاصة أن عملية درع الفرات فتحت المجال واسعاً أمام النظام والجهاديين على حد سواء لكي يخوضا المعارك الفاصلة في إدلب وحماة وحلب.

ثالثاً- تحدي شرعية الجيش السوري الحر

أثار تهميش الجيش السوري الحر وإبعاده عن المعارك المركزية ردة فعل قوية في أوساط الحركة الثورية. ويسود اعتقاد في أوساط المعارضة السورية أن خمود الجبهة الجنوبية قد مكّن النظام من إعادة انتشار قواته لتشارك في معارك مركزية أخرى، ما سمح له بالسيطرة على داريا وحصار حلب. وفيما يتعلق بعملية درع الفرات فثمة أعداد متزايدة من المقاتلين يتساءلون حول مغزى توقيت العملية.

وبحلول حزيران/يونيو 2016، وقّع نحو خمسين شخصية بارزة بينهم قادة عسكريون ورجال دين وناشطون ومثقفون بياناً أسموه "نداء الفزعة إلى ثوار حوران". وكان أول الموقعين أبو جمال، قائد المقاومة المسلحة في داريا، ما أعطى البيان بعداً رمزياً.[14] ودعا البيان مقاتلي الجنوب للعودة إلى القتال مجدداً. وعلى مدى الصيف، وبينما كان النظام يتقدم في داريا، كان قادة الجبهة الجنوبية يُقارنون بالخونة والجبناء، ويُقابَلون بالإسلاميين في الشمال الذين كانوا يواصلون القتال. وفي تموز/يوليو أصدر 54 رجل دين إسلامي –بينهم مقربون من القاعدة من مثل عبد الله المحيسني– فتوى تحرّم الانتماء إلى أي فصيل لا يقاتل النظام.[15] وفي الوقت نفسه، دعا الناطق باسم حركة أحرار الشام الناس لكي يطيحوا بقادة الجبهة الجنوبية.[16]

والواقع أن فصائل الجيش الحر الجنوبية واقعة بين نارين: ضغط الإسلاميين الذين يصمونهم بالخيانة من جانب؛ وضغط داعميهم الذين يجبرونهم على الجلوس ومراقبة حلب وضواحي دمشق وهي تتدمر. ويخسر القادة الذين يوافقون على شروط الموك (MOC) كل شرعية محلية لهم. وفي 2016، جرت عمليتان انقلابيتان من قبل مقاتلي الجيش الحر ضد قادتهم: واحدة في لواء شباب السنّة في شهر آب/أغسطس. والثانية في جبهة ثوار سوريا في أيلول/سبتمبر.

---

[14] حرية نت: "ناشطون وقادة الثورة السورية يصدرون نداء الفزعة لثوار حوران"، حزيران/يونيو 2016، متوفر بالعربية على الرابط: horrya.net/?p=7638

[15] المركز الصحفي السوري: "54 عالماً يصدرون فتوى البقاء تحت راية أي فصيل لا يقاتل النظام حرام". 18 تموز/يوليو 2016. متوفر على الرابط: https://syrianpc.com/54-عالماً-يصدرون-فتوى-البقاء-تحت-راية-أي/

[16] تغريدة من لبيب النحاس، مسؤول العلاقات العامة في حركة أحرار الشام. 2 آب/أغسطس 2016. متوفرة على الرابط: twitter.com/LabibAlNahhas/status/760562856270106625

ففي آب/أغسطس تمّت إزاحة أحمد العودة قائد لواء شباب السنة من قبل مقاتليه وبعض المدنيين. ولكن ما إن مرّت بضعة أيام حتى عرف الموك بذلك، وسرعان ما أرسل مقاتلين من فرق أخرى في الجبهة الجنوبية لمهاجمين مقرات لواء شباب السنة في بصرى الشام وإعادة تنصيب العودة قائداً له.[17] وذكر أحد مقاتلي الجيش الحر للمؤلف أن "الجميع يكره أحمد العودة ولكن الموك يريده في منصبه. هو ليس ثائراً. هو مجرد عبد للموك".[18]

وفي أيلول/سبتمبر، حاول لواء الشهيد العميان أن يبدأ إضراباً على الحدود وقرر الانسحاب من مواقعه على طول الحدود الأردنية.[19] وكان مطلبهم الرئيسي فتحَ الحدود أمام المقاتلين الجرحى، وكان الأردن قد أغلق الحدود أمامهم كوسيلة للضغط من أجل منع الثوار من الانخراط في المعارك. "لقد كنا نأمل أن تحذو الفصائل الأخرى حذونا كنوع من الاحتجاج على الأردن، ولكن الضغوطات، لسوء الحظ، أقوى بكثير، ولغاية اليوم لا تزال الفصائل تقوم بمهمتها كخفر حدود".[20]

وفي الشمال، ازداد الانتقاد الموجه إلى عملية درع الفرات حدة. وحاول الجيش الحر أن يقنع نفسه أن جولة ثانية من هذه العمليات ستأتي للقتال ضدّ النظام واسترداد مدينة حلب من الأسد. ولكنهم يواجهون نقداً عنيفاً من الفصائل الأخرى، وبشكل خاص الجهاديين الذين تم إقصاؤهم من المشاركة في العملية التي تقودها تركيا، ويشعرون أنهم تُرِكوا وحيدين في المعركة في حلب وحماة. وعلى الرغم من نجاح العمليات ضدّ داعش والقوى الكردية؛ فإن الكثير يسأل إذا ما كان استرداد تل رفعت أو الباب أولوية بالفعل، بينما كانت حلب تحت الحصار. ولقد انسحب أحد فصائل إدلب من عملية درع الفرات، وذلك –وفق بيان لهم– بسبب الوضع على الجبهات مع النظام.[21] كما أن عدداً من مقاتلي الجيش السوري الحر الذين شاركوا في الأيام الأولى من العملية، عادوا إلى فصائلهم المحلية ليدافعوا عن أهلهم ضدّ النظام.[22]

خاتمة

تحولت الحرب السورية إلى صراع مدوَّل، تكافح فيه العناصر المحلية ليكون لها بعض التأثير في مجرى الأحداث. لقد غدا القتال بدون دعم خارجي مستحيلاً، لكن المطلوب، مع ذلك، هو أن يكون الفاعلون في سوريا حلفاء للداعمين الخارجيين وليسوا أدوات تقاتل نيابة عنهم. والحال أن الجيش الحر مقسّم ومشرذم إلى حد بعيد بحيث يصعب عليه تجنب أن تُفرض عليه أجندات لأطراف خارجية، كما يستحيل تقريباً على الثوار أن يطوّروا إستراتيجية بعيدة الأمد.

في المقابل، استطاعت الفصائل الكردية المتحالفة مع الـ ب ك ك (PKK) أن تفاوض على أجندتها الخاصة مع داعميها، مستفيدة من التنافس بين داعِمَيها الرئيسيين: الروس والولايات المتحدة، لتدفع كل طرف منهما لزيادة جهوده. وعلى سبيل المثال، وافق الأكراد على أخذ بلدة الشدادي من داعش بناء على طلب من الأمريكان مقابل ضمانة بأن يتمّ دعمهم في منبج. وهم اليوم يناقشون أيضاً طريقهم إلى الرقة، التي لن يساعدوا في إسقاطها إذا لم يأخذوا شيئا بالمقابل.

---

[17] مرآة سوريا: انقلاب شعبي ضدّ فصيل شباب السنة في بصرى الشام. متوفر على الرابط:
syrian-mirror.net/ar/ الأقسام/مرآة-البلد/انقلاب-شعبي-ضد-فصيل-شباب-السنة-المعارض-في-بصرى-الشام/

[18] مقابلة على سكايب مع أحد مقاتلي الجيش الحر في درعا. أيلول/سبتمبر 2016.

[19] انسحاب لواء الشهيد العميان من الحدود بسبب إغلاقها، يوتيوب، متوفر على الرابط:
www.youtube.com/watch?v=AwaoN2Jgffl

[20] مقابلة على سكايب مع أحد مقاتلي لواء الشهيد العميان، تشرين الأول/أكتوبر 2016.

[21] الاتحاد برس: لواء صقور الجبل يعلق مشاركته في درع الفرات، متوفر على الرابط: http://aletihadpress.com/2016/09/17/لواء-صقور-الجبل-يعلق-مشاركته-في-درع-الف

[22] مقابلات على سكايب في شهري أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر 2016.

أما بالنسبة للجيش السوري الحر، فإن عدم مقدرتهم على مواجهة داعميهم وتطوير بعض وسائل التأثير في القرارات التي تُفرض عليهم؛ دفعهم إلى هامش الأحداث في أرض المعركة. وثمّة رأي سائد في الغرب مفاده أن الجيش الحر لم يعد موجوداً في الواقع. ولكن هذا غير صحيح في العموم، والحقيقة هي أن عشرات الألوف من المقاتلين قد دُفِعُوا بعيداً عن القتال المركزي، الأمر الذي أفسح المجال أمام النظام والجهاديين للقتال.

إن معركة فك الحصار عن حلب، هي خير مثال عن هذه الحالة. فبعد فشل الدبلوماسية، كان بالإمكان تقديم الدعم العسكري المخصص للفصائل التي تقاتل تحت راية درع الفرات التي تقودها تركيا، إلى جيش إدلب الحر، إضافة إلى خبراء قتال المدن من داريا الذين وصلوا إلى مناطق الشمال مؤخراً. وكان يمكن لذلك أن يعيد الشرعية إلى الجيش السوري الحر في الحركة الثورية، ما يعطيهم الفرصة لتحقيق انتصار رمزي، ما كان للجهاديين أن يلعبوا فيه سوى دور ضئيل. ولكن بدلاً عن ذلك، يتلقى الجيش الحر السلاح للمشاركة في المعارك الثانوية فقط، فيما يُترك لجبهة فتح الشام –القاعدة سابقاً- مهمة قيادة المعارك الكبرى مع النظام.

عن الكاتب

فيليكس لوغران باحث مستقل ومستشار يعمل على القضايا السورية، وتركز أبحاثه على البنى السياسية والعسكرية للقوى الفاعلة خارج الدولة في سوريا. تخرّج من معهد العلوم السياسية بباريس ودرس العربية في اليمن 2010 وسوريا 2011. وفي 2012، ساهم في تأسيس منظمة غير حكومية باسم "مبادرة من أجل سوريا". وعمل بين عامي 2013 و2015 في مبادرة الإصلاح العربي. وسافر عدة مرات إلى شمالي سوريا وجنوبي تركيا في زيارات بحثية ميدانية.

بيان المهمة

"مبادرة الإصلاح العربي" مؤسسة بحثية رائدة للبحوث الفكرية المستقلة، تقوم، وبشراكة مع خبراء من المنطقة العربية وخارجها، باقتراح برامج واقعية ومنبثقة عن المنطقة من أجل السعي إلى تحقيق تغيير ديمقراطي. تلتزم المبادرة في عملها مبادئ الحرية والتعددية والعدالة الإجتماعية. وهي تقوم بالأبحاث السياسية، وتحليل السياسات، وتقدم منبراً للأصوات المتميّزة.

- **ننتج** بحوث أصيلة يقدمها خبراء محليون، ونتشارك مع مؤسسات عربية ودولية لنشرها.
- **نشجع** الأفراد والمؤسسات على القيام بتطوير رؤيتهم الخاصة للحلول السياسية.
- **نعبئ** الأطراف المعنية لبناء تحالفات من أجل إنجاز التغيير.

هدفنا أن تشهد المنطقة العربية صعود وتنمية مجتمعات ديمقراطية عصرية.

تأسست "مبادرة الإصلاح العربي" عام 2005 ويشرف على عملها مجلس الأعضاء وهيئة تنفيذية.

مبادرة الإصلاح العربي، أبريل/نيسان 2017

www.arab-reform.net

© 2017 مبادرة الإصلاح العربي تحت رخصة المشاع الإبداعي، اضغط هنا لقراءة الرخصة

contact@arab-reform.net